التعليل فى التـاريخ

للدكتور محمد ثابت الفندى

(١) العلية فى العلوم الطبيعية . (٢) أمثلة من استعمال المؤرخين للعلية.
(٣) استبعاد نظريتى تين وكروتشه فى التعليل فى التاريخ . (٤) التعليل التاريخى فى ضوء العلية الفاعلة (٥) التعليل التاريخى فى ضوء العلية الغائية .

مما تعنى به « فلسفة العلوم » تحليل التفكير العلمى وتتبع الخطوات التى يتبعها العلماء فى اقامة علومهم المختلفة ، ومنها علم التاريخ .

وهو علم يحتل مكان الصدارة بين العلوم الانسانية لأنه ما من مسألة تثار فيها إلا ولها « تاريخها » الذى يلقى الضوء على حاضرها ، ثم هو علم فريد بين العلوم كلها انسانية وطبيعية ، لأنه ينفرد بأنه يدرس حوادث أو « وقائع » تمتاز بصفة « الانفراد » أو عدم التكرر ، لأنها وقائع ذهبت مع الماضى الى غير رجعة ، ولا يستطيع المؤرخ حيالها الا أن يستعيدها « الآن » فى ذاكرته ومخيلته وعواطفه وعقله ويؤلفها تأليفا « مثاليا » أى فكريا فحسب ، بحيث تبدو الواقعة التاريخية مزدوجة الزمن : الزمن الذى وقعت فيه وانقضى الى غير عودة ، ثم الزمن الذى يستحضرها فيه المؤرخ فى مشاعره وذاكرته وعقله ، مما حدى بمفكر مثل أوكشوت (١) أن يستنتج من هذا الازدواج تناقضا فى المعرفة التاريخية حين يقول : « ان التاريخ سلسلة متصلة من اثبات ماض هو ليس بالماضى ، ومن اثبات حاضر هو ليس بالحاضر » . هذا التناقض لاشك مرفوع ، وموضع الشبهة فيه بين ، ولكنه يشف عما للتاريخ من نوع فريد فى وقائعه تميزه عن غيره من العلوم .

---

(١) Oakeshott فى كتابه Experience and its modes

ان ما أريد بيانه فى هذا البحث هو الطريقة العامة فى فهم وتفسير الوقائع التاريخية .

فى الطبيعيات انما تفهم الوقائع وتفسر عندما تندمج فى نظمها أو درجها فى الاطار الثلاثى المؤلف من « المكان » و « الزمان » و « العلية » . عندئذ تصبح الوقائع تامة التحديد ، وهذا التحديد هو ما نعنيه عندما نقول ان واقعة طبيعية وقعت فعلا . غير أن الوقائع التاريخية تنتسب الى مرتبة أعلى من مرتبة وقائع الطبيعة والى عالم آخر غير عالم هذه الأخيرة . هنا أيضا يجب أن نحدد مكان وزمان الوقائع التاريخية ، وهو تحديد لايختلف عما يمارسه علماء الطبيعة . ولكن عندما ننتقل الى البحث عن « علل » الوقائع أو أسبابها أى عندما نصل الى البعد الثالث من اطارنا الذى يحدد فهم الوقائع التاريخية فسنجد أنفسنا أمام مسألة جديدة وعسيرة ومختلفة عما يحدث فى الطبيعيات ، ونحن اذا عرفنا كل وقائع التاريخ فى أمكنتها وأزمنتها فحسب فلن نكون بذلك قد فهمناها واستقصيناها تماما لأنه يبقى بعد ذلك نظمها أو درجها فى نطاق العلية والمعلولية لكى نراها على حقيقتها الحركية متولدة بعضها عن بعض ، وعلى صورة حية عاشها الناس فعلا نعقلها نحن لأنها تعبر عن تلك الحياة الانسانية الفعلية ، واذا حدث أن جهلنا تماما تلك العلل والأسباب التى ترتبط بها حوادث التاريخ فسيصبح التاريخ عملا جنونيا وغير قابل للمعقولية فى صورة معرفة أو علم ، اذ أن المعرفة لاتكون جديرة باسم العلم الا اذا كشفت لنا عن العلل والأسباب فيما تتحدث عنه من وقائع .

ان المكان والزمان لايثيران مشكلة فلسفية فى البحث التاريخى ، فتحديدهما رهن بالوثائق والمقارنات والاستنتاجات التى يألفها المؤرخون . أما التعليل فيبدو أنه المشكلة الكبرى فى فهم التاريخ والمعرفة التاريخية ، ومن ثم فسنحصر الكلام هنا فى العلية وحدها التى هى لب تفسير أو فهم الوقائع فى التاريخ وفى غير التاريخ من علوم .

ربما لا توجد فكرة لقيت من عناية الفلاسفة منذ أن كانت الفلسفة ما لقيت فكرة العلية لأنها فكرة متضمنة حتما فى كل كلام فى « الوجود » وفى كل كلام فى « المعرفة » وهما الفلسفة بحذافيرها ، والذى يعنينا الآن

من فيض مناقشاتهم أنها فكرة معقدة غاية التعقيد ، وأن القول البسيط بأن « لكل معلول علة » يختلف عند التطبيق والبحث من مجال الى آخر من مجالات المعرفة الانسانية بحيث تختفى تماما تلك الصياغة الأولى البسيطة للعلية .

فى العلوم الطبيعية عند ما نقول ان هناك علاقة « علية » بين ضغط الغاز ودرجة الحرارة مثلا (قانون ماريوت) فاننا نفهم من العلية علاقة ثابتة بين طرفين بحيث اذا تغير أحدهما تغير الآخر تبعا لذلك ، أو فى عبارة أخرى نستعيرها من لغة الرياضة التى يستعملها العلم نفسه نفهم منها « دالة » (Fonction) لمتغيرين (Variables) . هنا تتلاشى تماما فكرة ضرورة « سبق » العلة على معلولها كما يتلاشى تماما اختلاف العلة عن المعلول وهما الفكرتان اللتان تسودان تصورنا العادى البسيط للعلية ؛ ذلك لأن العلة والمعلول هنا يتبادلان موضعيهما بحيث لانرى وجها لتسمية أحدهما دائما علة وآخرهما دائما معلولا .

وفى الكيمياء اذا قلنا أن ذرة من الأكسجين اذا اتحدت مع ذرتين من الأيدروجين تكونت ذرة من الماء ، فسنرى بالاضافة الى نتيجة التحليل السابق الدال على تبادل العلة ومعلولها لموضعيهما أن فكرة العلية تتعقد تعقيدا جديدا اذ تتضمن أيضا فكرة « المساواة » بين طرفين .

هذا وفى المثالين السابقين اللذين أخذناهما من علمين مختلفين كالطبيعة والكيمياء فاننا نفهم من العلية جملة « القانون » العام : فالمثل الأول هو قانون حجم الغاز والثانى قانون تركيب الماء .

نرى من هذه النظرة السريعة كيف ابتعدت المعرفة العلمية فى استعمالها « للعلية » عن الصيغة البسيطة القائلة بأن لكل معلول علة ولكن دون أن تخل بها مع ذلك أو تخرج عنها ، وكل ما فى الأمر أن فكرة العلية قد ازدادت فيها تعقيدا ، وكذلك الأمر فى المعرفة التاريخية ، فهى وان اختلفت فى تطبيقها لتلك الصيغة البسيطة العامة للعلية كما اختلفت الطبيعة عن الكيمياء

فانها — أى المعرفة التاريخية — لا تحل بالعلية ولا تخرج عنها أو تحيد . ولكن تحليل العلية فى التاريخ ليس بذلك الوضوح الذى صادفناه فى المعرفة العلمية البحتة .

فأولا وقبل كل شىء ليست الألفاظ المعبرة عن العلية فى التاريخ واضحة وموحدة كما هو الأمر فى المعرفة العلمية لأنها لاتعبر عن « قوانين عامة » فنحن نجد فى التاريخ ألفاظا كثيرة تدل عليها مثل : لأن ، لكى ، بسبب ، تحت هذه الظروف ، كانت الظروف مواتية ، كانت فرصة مناسبة ، ليس من الممكن فى مثل هذه الظروف ، ليس بمستغرب أن ، من الطبيعى عندئذ ، يؤدى الى ، يجعل ، عمل على ، العوامل ، يبعث على ... الى غير ذلك مما يشهد بثروة واسعة من العبارات المعبرة عن العلية واستعمالها عند المؤرخين .

وفيما يلى أمثلة من كتابات المؤرخين أنفسهم :

١ — « توفى لويس الرابع عشر مكروها ...» لكونه « أفقد فرنسا المكانة الممتازة التى اكتسبتها " بفضل " سياسة الكرادلة »(١).

٢ — « "كانت الظروف مواتية" للثورة فلم تكن للحكومة قوة عسكرية معدة وكانت الطبقة العاملة تمر بمرحلة بطالة حادة »(٢).

٣ — « لقد نشأ جيل من الثوار العنيفين " لأن " انعدام الحريات الذى أعاق تكوين ثقافة مستنيرة وناقدة وجه عقول الطلاب اما الى أحلام يقظة واما الى عقلية مجردة فجة »(٣).

٤ — « انما " نشأت " الحرب الكبرى كحادث فى تاريخ الانسانية عن السيكولوجية الانسانية »(٤).

---

(١) Ch. Seignibos فى Histoire du Peuple Français

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٥

(٣) B. Croce فى Hist. of Europe in The 19 th Century ص ١٨٨

(٤) Leonard Woolf فى After the Deluge ص ٢٧

٥ — « لقد تفككت التقاليد القديمة (فى أوروبا) " لأن " الأسلام حطم الوحدة القديمة لحوض البحر الأبيض المتوسط »[١].

نلاحظ الآن أن تلك التعليلات لا تعبر عن قوانين عامة وقضايا كلية كالشأن فى العلوم الطبيعية ذلك لأن التاريخ كما قلنا يمتاز بميزة « الانفراد » فى وقائعه ويتحدث عما هو منفرد فى الماضى الذى لايعود فلا وجه اذن لبحثه عن قوانين عامة . ومع ذلك فان تعليلاته تلك تبدو أنها فى الوقت عينه تطبيقات لقوانين عامة وقضايا كلية مضمرة فى تفكير المؤرخ ، وهذا ما تنبه اليه بوبر [٢] وعبر عنه على الوجه الآتى : « انما الحادث (فى التاريخ) هو علة لآخر بالنظر الى قانون عام ما ، وذلك مهما كانت تفاهة القوانين التى من هذا النوع ، بحيث أننا عادة نقبلها مضمرة بدلا من أن نستعملها صراحة ، فاذا فسرنا مثلا التقسيم الأول لبولنده عام ١٧٧٢ بأن قلنا انها لم تكن تستطيع أن تقاوم القوى المؤتلفة لروسيا وبروسيا والنمسا فنحن نضمر فى هذا التعليل قانونا عاما نافيها كالآتى : اذا كان من بين جيشين يمتاز أحدهما بالتفوق العددى العظيم فى رجاله فأن الجيش الآخر لن يربح أبدا . مثل هذا القانون ربما أمكن اعتبارة من قوانين علم اجتماع القوى الحربية ولكنه تافه الى حد أنه لايثير مشكلة عند طلاب الأجتماع أو حتى يستلفت انتباههم » .

ليست اذن تعليلات المؤرخين قوانين عامة كما فى الطبيعيات وان كانت فى الوقت عينه تطبيقات لقوانين عامة حتى ولو كانت بديهة نقبلها مضمرة فى الذهن دون استعمالها صراحة فى التأليف كما يتضح من المثال السابق .

والآن قبل أن نشرع فى بيان طبيعة التعليل عند المؤرخين يجب أن نستبعد مقدما تصورين أو مذهبين خاطئين فى العلية فى التاريخ هما تصور تين وتصور كروتشه .

---

(١) Henri Pirenne فى Mohammed et Charlemagne ص ١٨٥

(٢) Popper فى Open Soeiey ص ٢٤٠

فى فصل عن نشأة وأضمحلال فلسفة التاريخ من الكتاب القيم المسمى نظرية وتاريخ كتابة التاريخ للفيلسوف بنديتو كروتشه (١) ، بعد أن اقتطف المؤلف فقرة تين الموجزة لمذهبه فى منهج التاريخ وهى « بعد جمع الوقائع ، البحث عن العلل » (٢) يأخذ كروتشه فى نقد مذهب تين نقدا لم يوفق فيه كثيرا : فهو يبدأ بتناول فكرة تين فى البحث عن العلل فيقول نحن نعلم ماذا يحدث عندما نبحث عن ربط واقعة بأخرى كعلة لها ثم عن ربط هذه الاخيرة بعلة سبقتها وهكذا . فسينفتح أمامنا بذلك تراجع لانهائى بحيث لن ننجح البتة فى الوقوف على « العلة الأولى » التى تربط اليها السلسلة التى كوناها من العلل والمعلولات . وواضح أن اعتراضا كاعتراض كروتشة هذا من نوع فلسفى قديم فى غير موضعه هنا وأيضا هو اعتراض عقيم لأنه أولا يقدم الينا صورة حسية عن علل متتابعة تكون سلسلة ممتدة الى ظلام الماضى ، ولأنه ثانيا يطبق على تلك الصورة الفكرة القديمة لتراجع لاينتهى ، ولأنه ثالثا وأخيرا يوهم بأن هناك خطأ ما فى التفسير بالعلية ما لم نعثر على « العلة الأولى » . ونحن اذا قبلنا هذا الوهم الأخير فسنعجب كيف يمكن التعليل اطلاقا فى أى علم من علوم لا فى التاريخ وحده لأننا لن نجد أبدا تلك العلة الأولى التى تتحدث الفلسفة وحدها عنها .

فلنتجاوز اذن هنا عن أعتراضات كروتشة على تين ولنفحص بدورنا عن نقط الضعف فى نظرية هذا الأخير التى تعرف بالنظرية الوضعية فى التفسير التاريخى اذ يجب أن نتذكر أن تين هو تلميذ أوجست كونت صاحب الوضعية ومنشئها .

أن نقطة الضعف فى نظرية تين ترجع الى ثلاث نقط هامة : أولاها أنه صور عمل المؤرخ على نحو غريب حين تخيله كمن يتصيد الوقائع فى كل مكان كتصيد عالم الحشرات لفراشاته ، أعنى كما لوكانت وقائع التاريخ أشياء قائمة بذواتها هنا وهناك ، وهو أحيانا لحسن حظه يعثر عليها فيجمعها .

---

(١) Theory and History of Historiography لـ B. Croce

(٢) انظر H. Taine لـ Philosophie de l'Art

والنقطة الثانية هى أن المؤرخ بعد أن يفرغ نهائيا من جمعه لوقائعه يأخذ فى فحصها بدقة وعن قرب كما يفحص العالم خلال ميكروسكوبه لعله يتكشف عن خيوط العلية والمعلولية التى تربط بين ما جمع . والنقطة الثالثة هى أن تين فصل نهائيا بالقبلية والبعدية بين المرحلتين السابقتين ، بين جمع الوقائع والبحث عن العلل .

وسبب الخطأ فى النقطة الأولى هو أن الوقائع التاريخية ليست موجودات قائمة هنا وهناك حتى يبدأ المؤرخ عمله « بجمعها » وأنما يبدأ المؤرخ عمله بالرجوع الى وثائقه المختلفة أيا كان نوعها ليستقى منها وقائعه ويؤلفها تأليفا عقليا . أما سبب خطأه فى النقطتين التاليتين فهو الفصل بينهما على الوجه الذى توهمه تين فى حين أن الواقع هو أن المؤرخ قلما يعلم واقعة تاريخية دون أن يعلم فى الوقت عينه سببها اذ الوقائع تأليفات عقلية يستنبط بعضها من بعض وترتبط ارتباطا باطنيا : فهو لايعلم أن نابليون أبحر محملة من طولون الا وقد سبق الى فكره صلة ذلك بغزو مصر ، ولا يعلم أن محمد على دعا المماليك الى القلعة الا وقد صاحب ذلك فى فكره واقعة أخرى هى الغدر بهم ، فالوقائع التاريخية اذن ليست منفصلة احداها عن الأخرى فى قوامها الذاتى كوقائع الطبيعة وانما هى معطاة له فى تجربته الذهنية ومشاهداته العقلية كوحدة أو ككل متصل مرتبط بروابط العلية يضىء بعضها بعضا وتفسر كل واحدة منها غيرها كسابق أو كلاحق . وحين لايرى المؤرخ ذلك الارتباط فى وقائعه فانه يرجع الى وثائقه والى تأليفاته الفكرية للوقائع ليتكشف فيها عما لم يره واضحا . وهنا فقط يختلف مؤرخ عن آخر فيما يعثر من أسباب وعلل بعيدة نتيجة لتعقد الوقائع التاريخية ولاختلاف تأليفاتها الفكرية الناجمة عن أهتمام المؤرخ بجانب من موضوعه دون جانب آخر وأيضا عن اختلاف ثقافته ووجهة نظره ، وهو فى كل هذا لا يخرج عما تتضمنه الوقائع ذاتها وتشير اليه من علاقات علية . هذا هو ردنا على النقطتين الأخيرتين من نظرية تين ومنه يتضح أن البحث عن العلة فى التاريخ ليس منفصلا عن ادراك الوقائع ذاتها ولا لاحقا له .

غير أن كروتشه الذى لم ير هذا الرأى والذى نقد العلية عند تين على أساس استحالة الوصول الى العلة الأولى انتهى الى نظرية غريبة هى من صميم النزعة التصورية (Idealisme) لأنها نظرية ترفض العلية بتاتا فى فهم التاريخ بسبب أستحالة الوصول الى العلة الأولى كما يؤخذ من نقده على تين . وشأنه فى رفض العلية اطلاقا على هذا الأساس شأن من لقى مرة ذئبا فى جلد شاه فلم يعد يصدق بعد ذلك وجود شاة ما ، بعبارة أخرى لما لم يعثر على العلة الأولى لم يعد يصدق العلية اطلاقا . فكروتشه يقول فى نظريته بعد أن استبعد العلية : « أن الواقعة عندما نتمثلها أو نعقلها تاريخيا لا علة لها ولا غرض خارجا عن ذاتها ، وأنما هى فى ذاتها فحسب ، ومطابقة لكيفياتها الحقيقية وحقيقتها الكيفية » (١) . وهذه العبارة التى تبدو معقدة انما معناها بكل بساطة أن الواقعة التاريخية لا علة لها من خارجها لأن مجرد استحضار المؤرخ لها فى ذهنه واحيائه لها على حالها فى عقله هو فى الوقت عينه رؤيتها كيف حدثت أى يتضمن تفسيرها ، بمعنى أن كيفية حدوثها جزء منها وصفة من صفاتها المؤلفة لحقيقتها فى الذهن . تلك هى النظرية التى أراد بها كروتشه أن يتجاشى صورة سلاسل من الوقائع لا تنتهى الى علة أولى فانتهى الى حذف العلية اطلاقا فى تصورية مقفلة فى حدود كل واقعة تاريخية على حدة . والضعف فى نظرية كروتشه هو ضعف كل تصورية مطلقة اذ أن كروتشه خلط نهائيا بين تصور الواقعة فى الذهن وبين التعبير أو الحكم الذى يمارسه المؤرخ فى كتابة التاريخ ويعبر به عما حدث خارج ذهنه والحكم وحده هو الذى يفصل ما أجمله التصور ويخرج العلة عن معلولها المجملين فى تصور واحد . ومن ثم يجب ايضا استبعاد نظرية كروتشه .

بعد أن استبعدنا نظريتى تين وكروتشه نعود الى المسألة المرجأة منذ حين بشأن طبيعة التعليل أو التفسير فى التاريخ .

لقد وضعنا المؤرخ المعاصر أرنولد توينبى (٢) أمام القضية المنحلة الآتية وهى أن التاريخ اما وليد « الصدفة العمياء » واما انه خاضع « لقوانين حديدية » ، وكأنه بذلك لا امكان لقضية ثالثة غيرهما ؛ والحقيقة أن التاريخ

---

(١) B. Croce فى المرجع السابق ذكره ، ص ٧٦

(٢) A. Toynbee فى Civilisation on Trial

ليس وليد الصدفة العمياء كما أنه ليس خاضعا لقوانين حديدية اذ ليست في التاريخ قوانين ما ولا يهدف التاريخ الى شيء منها وانما التاريخ يخضع فحسب الى قانون أوحد هو قانون العلية في عمومه ووحدانيته .

ولكن عندما نشرع في تحديد العلية في التاريخ ونفحص طبيعتها واستعمالاتها عند المؤرخين فسنجد أن الأمر قد أختلف فيها عما قدمناه عن العلية في العلوم الطبيعية ، كما سنجده أيضا قد اختلف في التاريخ نفسه وهذا الأختلاف الأخير الذي يهمنا هنا بصفة خاصة ليس هو اختلاف مؤلف عن آخر وانما هو اختلاف في جوهر العلية التاريخية ذاتها الى علية « فاعلة » (أو ميكانيكية) والى علية « غائية » (أو عضوية) كما يقول الفلاسفة ، ولكن يجب التنبيه فورا الى أن المعرفة التاريخية لا تأخذ بأحداهما دون الأخرى وانما تستقيم علما بهما معا في آن واحد مع ما بينهما من تفاوت كبير ، ومنشأ هذا الازدواج في العلية هو مجرى التاريخ نفسه : فنحن اذا نظرنا اليه من خارجه كتتابع زمني للاحداث فلا مناص من أن نضمنه علية فاعلة بمقتضاها تتتابع الأحداث مؤثرة بعضها في بعض ، وأما اذا نظرنا اليه من باطنه كانهار من الأحداث تنبع أصالة من أعماق الأفراد والمجتمعات ، أعني من الانسان وحده ، فلا بد أن نضمنه كعلة مفسرة له البواعث والأهداف الانسانية البحتة أعني العلية الغائية ، والنظرتان بعد متتامتان متلازمتان أشد التلازم ولكن ينبغي علينا هنا تبسيطا للعرض أن نفصل بينهما وأن نعالج أولا تفسير التاريخ في ضوء العلية الفاعلة .

نحن لا نجهل الاعتراضات الوجيهة التي أثارها الفيلسوف ديفيد هيوم ضد فكرة العلة الفاعلة ، فلنستبق اذن من معانيها العديدة مجرد علاقة ما بين سابق ولاحق وأقول علاقة « ما » لكي أستبعد من هذا البحث كل مشكلة ميتافيزيقية في ماهية تلك العلاقة .

يجب أن نلاحظ الآن الملاحظة الهامة الآتية وهي أن فكرة العلية بهذا المعنى المحدد ليست هي الفكرة التي تثير صعوبة عند النظر في منهج التفسير عند المؤرخين ، وانما الصعوبة كلها تتركز في فكرة « السابق » التي

ضمناها تحديد العلية . فهذا السابق عند البحث والتطبيق فى التاريخ هو المشكلة كلها التى تقسم المؤرخين أنفسهم الى مدارس ومذاهب فى التاريخ ، كما أنها هى المشكلة التى تحفز المؤرخ الى التجديد فى كتابة التاريخ وتجعل لكل مؤرخ طرافته وأصالته .

إن الفلاسفة الذين كثيرا ما ضللهم لفظ علة ربما يضللهم الآن أيضا لفظ « السابق » فيسبق الى أذهانهم أن وراء كل موقف تاريخى توجد علة معينة بالذات سبقت ذلك الموقف وأدت اليه ويكفى المؤرخ أن يقف على هذا السابق الذى أختفى عن الأنظار ليفهم الموقف التاريخى كله ، ولكن مثل هذا التصور وهم يجانب حقيقة البحث عند المؤرخين ، اذ أن هؤلاء انما يبحثون من وجهات نظر مختلفة وفى ضوء اهتمامات متباينة وعلى أبعاد زمنية ومكانية متفاوتة من أحداث التاريخ ومسارحها ، كما تتنوع أيضا ثقافاتهم التى لابد أن تنعكس صورها على دراساتهم التاريخية ومن ثم فلا غرابة تبعا لتلك الأختلافات كلها عندهم أن لا يرى المؤرخون نفس « السابق » أو العلة لكل حادث من أحداث التاريخ . فالتفسير الأصيل المبتكر يختلف من مؤرخ الى آخر نتيجة لا صالته فى مشاهدة وقائعه . بهذه المناسبة يقول جاردنر[1] : « ان قيمة التأليف التاريخى الأصيل انما هى فى أبراز علاقات ما بين وقائع تاريخية مؤكدة وثيقة ، مثلا بين ثورة عام ١٨٤٨ والعوامل الأخرى التى لم يسبق أن أعترف بها مؤرخ من قبل بأنها سبب لها . فكتاب ماركس المسمى الثامن عشر من برومير لويس بونابرت هو مثال لهذا » . ويتضح من هذا كم نحن بعيدون فى التاريخ عن تصور سابق بعينه كعلة وحيدة لحادث معين . فأول تحديد لما أسميناه « السابق » فى التفسير التاريخى هو أنه لا سابق بعينه أو لاعلة وحيدة بالذات لحادث معين .

---

(١) Gardner فى Explanation in History والاشارة هنا الى نظرية ماركس فى ان لتلك الثورة أسبابا اقتصادية بحتة على خلاف ما رأى غيره من المؤرخين الذين أرجعوا الثورة الى خلاف سياسى بين البوناپرتيين والبربونيين .

تحديد آخر هو ما يدخله المؤرخون من تمييز فى السوابق بين « السبب الحقيقى » و « السبب المباشر » أو « الفرصة المواتية » . وفى هذا التمييز الهام عند المؤرخين يقول ريموند آرون [1] : « لنأخذ مثالا ثورة عام ١٨٤٨ فان سببها المباشر . وهذا تعبير شائع — هو اطلاق النار فى شوارع باريس ولا يشك أحد فى تتابع هذين الحادثين . ولكن البعض يقلل من شأن حادث اطلاق النار ويقول لو أنه ما حدث قط لما امتنع مع ذلك انفجار الثورة . ومثل هذا القول لو عبرنا عنه بدقة فانه يساوى القضية الآتية وهى اننا اذا حذفنا ذهنيا حادث اطلاق النار فان السوابق الأخرى فى مجموعها هى « سبب حقيقى » فى احداث الثورة .. أما السبب المباشر فليس الا « الفرصة المواتية » لحادث ما وذلك عندما يرى المؤرخ أن هذا الحادث لا محالة واقع فى ضوء الموقف التاريخى كله » . ومن هذا يتضح تعقيد آخر فى فكرة السابق عند ما نميز فيها بين السبب الحقيقى والسبب المباشر .

ومن جهة أخرى كثيرا ما يتعدد « السابق » عند المؤرخين اذ هم يعطون أسبابا عديدة لحادث بعينه مهما كانت درجة بساطته . ولكنهم أيضا كثيرا ما يميزون فى كثرة السوابق بين السبب الحقيقى أو السبب البعيد أو جذور الحوادث وبين الأسباب الأخرى المساعدة . وليس لهم فى هذا التمييز أى سند أو علامة غير نوع اهتماماتهم والتفاتاتهم ودرجة ثقافتهم ووجهات نظرهم . فقد يؤكد مؤرخ أن حادث مقتل أرشيدوق النمسا فى سراجيفو عام ١٩١٤ ليس السبب الحقيقى للحرب الكبرى الأولى بينما يؤكد صحفى ولا أقول مؤرخا يكتب افتتاحية غداة أشتعال الحرب بأن الموقف الدولى انما تأزم اذ ذاك بسبب ذلك الحادث نفسه . وهو لاشك محق بأعتبار أن أهتماماته أنما هى منحصرة فى تلك الفترة التى تأزمت فيها الأمور الدولية فجأة . ومن الخطأ الأعتقاد بأن المؤرخ والصحفى يتناقضان عندما يؤكد المؤرخ بدوره أن حادث سراجيفو ليس السبب الحقيقى للحرب اذ هو يرى الحرب من زاوية أعم وفى مستوى اهتمامات والتفاتات متباينة . الواقع أن مسألة لماذا اشتعلت الحرب الكبرى الأولى

---

(١) Introd. à'la Philos. de l'Histoire فى Raymond Aron

مسألة يمكن الاجابة عنها عند المؤرخين باجابات مختلفة : اذ يمكن أن يجاب عنها فى مستوى البواعث والأغراض ونقط الضعف عند الأفراد الذين أداروا مسرحها ، ويمكن أن يجاب فى مستوى السياسات القومية وتقاليد كل دولة ، ويمكن أن يجاب فى مستوى الأحلاف والمعاهدات والتوزيع الجغرافى للدول فوق رقعة أوروبا ، ويمكن أن يجاب فى مستوى الصناعة والمنافسات التجارية والاستعمارية ، وغير ذلك . ولكن مهما تعددت السوابق عند المؤرخين ومهما اختلفوا فى تحديد « السبب الحقيقى » فانه من المؤكد أن ذلك التعدد ان هو الا أشعة متنامة ومتضامنة فى اضاءة الأحداث وتفسيرها بعللها الفاعلة لها .

هذا كله يقودنا الى نقطة أخيرة وهامة هى أن فكرة « السابق » عند بعض المؤرخين لاتتخذ أحيانا كثيرة تقسيما من تلك التقسيمات فلا تنقسم الى سبب حقيقى وفرصة مواتية ، ولا تتعدد فى سلسلة من الأسباب بعضها هام وبعضها أقل أهمية ، وانما تنحصر فى نوع معين من النظم الاجتماعية يفسر فى ضوئه نوع أو أنواع من الأحداث والنظم . وهذا ما يمكن تسميته « بالنظريات » فى التاريخ . وأحيانا يعتبر ذلك النوع المعين من الأحداث والنظم مفتاحا عاما لكل الأحداث والنظم الانسانية طوال تقلب التاريخ وهذا شأن النظرية الماركسية مثلا التى تربط بين وسائل الانتاج الاقتصادى كعلة وحيدة وبين نشأة وتطور النظم السياسية والاجتماعية والحربية والثقافية والدينية والخلقية والقانونية كمعلولات .. من هذا النوع من التفسير للسابق ما يقيمه المؤرخون أيضا من علاقات علية بين الكالفنية ونمو الرأسمالية الحديثة ، أو بين ذيوع الآراء الديموقراطية فى القرن الماضى والحركات الوطنية أو بين الرق عند الرومان ونشأة المسيحية ، أو بين التنافس على الأسواق وقيام الحروب العالمية . ومثل هذا التعليل عام جدا ويعرض المؤرخين الى الانقسام الى مدارس تدين كل منها فى التفسير التاريخى بمذهب أو فكرة ثابتة كالمدرسة الاقتصادية أو المدرسة الاجتماعية أو حتى المدرسة السيكولوجية .

مما تقدم يتضح أن حوادث التاريخ ترتبط فى تسلسلها الزمنى برباط ما يسميه الفلاسفة العلة الفاعلة : فالحادث المتقدم زمانا يؤدى الى ما يعقبه زمانا .

ولكن التاريخ لا يتم فهمه الفهم الصحيح ولا يتمثله العقل كأحداث انسانية الا اذا فهمناه أيضا فى الاتجاه المضاد لمجرى الزمن ، فنأخذ ما هو آخر زمانا كعلة لما سبق أو كهدف وغاية له ، وهذا ما يسميه الفلاسفة « العلة الغائية » وما يتحدث عنه المؤرخون بألفاظ مثل البواعث والأهداف والمقاصد والرسالة وما شابه ذلك من مرادفات الغائية مما يجعل التتابع الزمنى أمرا معقولا ، ومن ثم يختلف المؤرخون عن علماء الطبيعة الذين لا يتكلمون عن غايات وأهداف لاعتناقهم العلية الميكانيكية وحدها اختلافا كبيرا فى تطبيق مبدأ العلية والامتداد به الى شمول الغاية .

ولكن يجب أن نكون حذرين غاية الحذر فى هذا الامتداد الجديد لمبدأ العلية عند المؤرخين ، ذلك لأن المؤرخ الحق كما تتصوره الآن « موضوعى » وليس ذاتيا بمعنى أنه لا يعير تتابع الأحداث هدفا وغاية من عنده فيجانب بذلك روح العلم الموضوعى . وانما كل الذى نريد أن نعنيه بالغائية عنده وفى استعماله هو فقط أن آخر مراحل الحوادث هو الذى يلقى ضوءا على ما تقدمها ، وأن الختام يفسر المقدمات وأن النهاية تجعل البداية أمراً معقولا . لقد بين هذا الفهم الضيق المحدود لفكرة « الغائية » الفيلسوف كانط (١) عندما تحدث عن أفلاطون فقال « انه ليس من غير الطبيعى .. أن نجد أنفسنا أكثر فهما له من ذاته . اذ أنه لما لم يكن قد حدد تصوره بدرجة كافية فانه أحيانا قد عبر أو حتى فكر ضد هدفه » . والواقع أن تاريخ الفلسفة يرينا بوضوح أن التحديد التام لتصور فلسفى جديد تماما يكون من عمل صاحبه الذى أدخله أولا فى الفلسفة ، وأن معناه التام لا يفهم الا فى ضوء نضجه التام والأخير عند لاحقيه أى فى الهدف الأخير لنموه فى التاريخ .

ولا يختلف فى هذا التاريخ السياسى عن تاريخ الأفكار . فما ينطبق على تفسير وفهم تصور فلسفى أو فكرة علمية ينطبق تماما على تفسير شخصية سياسية أو نظام سياسى .. لقد كتب فردريك جوندولف(٢)

---

(١) Critique de la Rais. Pure لـ E. Kant

(٢) Caesar ... لـ F. Gundolf

كتابا بأكمله لا عن قيصر وانما عن اختلاف تفسيرات المؤرخين لأهداف قيصر السياسية وفهمهم لرسالته كرجل دولة وذلك من أقدم العصور الى الآن .

وحتى فى حياتنا السياسية والاجتماعية يوجد الكثير من النزعات والآراء الهامة التى تبدأ مضمرة غير صريحة ولا تبرهن على قوتها أو لا تصل الى كامل معناها وتضجها الا فى مرحلة لاحقة . ففكرة سياسية أو برنامج اجتماعى أو وعى قومى انما يصبح فى النهاية صريحا وموعيا بها فى المجتمع بعد فترة من الاضمار والغموض فى نقطة البداية ، وتلك النهاية الصريحة هى « الغاية » التى يسير نحوها تطوره والتى تضفى معقولية على تتابع مراحله التاريخية منذ نقطة البداية . يؤكد مؤرخ انجليزى هو موريسون (١) فى تاريخه عن الولايات المتحدة بأن الكثير مما انتهى اليه تاريخ أهل المهجر الأمريكى انما يلقى ضوءا ناصعا على تاريخ وطنه الانجليزى ويكشف صراحة عن الكثير مما كان مضمرا فى التاريخ الانجليزى ذلك لأن الكثير من آراء المهجر السياسية ومعتقداتهم يمكن تتبعها الى أصولها فى انجلترا . فى هذه الأخيرة نشأت وقاومت تلك الآراء والمعتقدات خلال القرون رغم ما نالها من انتهاك وانتقاص على أيدى ملوك التيودور وأرستقراطية الحوج . ولكنها وجدت فى المهجر الأمريكى فرصة لنمو حر طليق فأثمرت ثمرها . فمثلا نجد من تلك الآراء والمعتقدات ما دخل فى صلب وثيقة اعلان حقوق الانسان الأمريكية ، كما نجد نظما نسيتها انجلترا على حين أنها بقيت ونمت مع تغير طفيف فى الولايات المتحدة الى منتصف القرن الماضى . وختم موريسون هذا كله بقوله : « لقد كانت رسالة لا شعورية للولايات المتحدة أن تجعل صريحا ما كان مضمرا لفترة طويلة فى الدستور الانجليزى ، وأن تثبت أيضا قيمة مبادىء نسيتها الى حد ما انجلترة جورج الثالث » .

لم تعد فكرة العلة الغائية بعد الذى تقدم غامضة ولكنها ستجد تدعيما أوفى فيما يلى . ذلك لأنه فى التاريخ السياسى بصفة خاصة وأكثر مما فى تاريخ الأفكار العلمية والنظم الاجتماعية نجد أن الذى يهمنا ليس مجرد

(١) S.E. Morison فى Oxford Hist. of the United states

الوقائع التاريخية وحدها . فنحن لا نود أن نفهم الحوادث التى تمثل على مسرح التاريخ فحسب بل نود أن نفهم الممثلين أيضا ، نود أن نفهم الأفعال وفاعليها . ولا شك يتوقف فهمنا لوقائع التاريخ على تصورنا وفهمنا للأشخاص الذين شاركوا فيها : فما أن نرى هؤلاء الأشخاص فى ضوء جديد حتى يتبع ذلك تغير فى معنى الوقائع ذاتها وفهمنا لها . ولذلك فان رؤية تاريخية صادقة للماضى أمر لا يتيسر بدون معاودة التفسير والتجديد المتواصل فيه . ان كتاب المؤرخ الايطالى فريرو[1] يختلف فى كثير من النقط عن الوصف الذى جاء به المؤرخ الألمانى مومسن[2] عن نفس العصر . وهذا الاختلاف مرجعه تصور كل من المؤرخين لشخصية شيشرون . ولكى نكوّن حكما عادلا عن شيشرون لا يكفى أن نعرف كل الوقائع المتعلقة بتفصيلته وما قام به من دور فى مؤامرة كاتالينا أو من دور فى الحروب الأهلية بين قيصر وبمبى . فكل تلك الأمور تظل مريبة وغامضة اذا لم نعرف « الانسان » الذى هو شيشرون ، أعنى اذا لم نفهم شخصيته وصفاته . وفى سبيل هذا على المؤرخ أن يفض رموزا أخرى غير حوادث التاريخ السياسية اذ يجب أن يستجلى خطب شيشرون وفلسفته ورسائله الى أخته توليا والى أصدقائه وأن يستشف بمشاعره خلال حرارة أسلوبه هنا وفتوره هناك ومن حسناته ومساوئه شيئا عن شخصية شيشرون . بعد ذلك كله فقط يمكن للمؤرخ أن يكون صورة صادقة لشيشرون السياسى ولدوره فوق مسرح السياسة فى روما . فالكشف عن الشخصية التاريخية هو الذى يلقى الضوء كله على البواعث والأهداف التى تفسر حوادث التاريخ تفسيرا غائيا اذ الأشخاص هم فى آخر الأمر منبع التاريخ وأحداثه وهم خاتمة المطاف لتقلباته .

للافاضة فى هذه النقطة الأخيرة المتعلقة بالأشخاص كمنبع لأهداف التاريخ وغايات حوادثه أود أن أسوق مثالا آخر من كتاب فريرو السابق الذكر . فمن أهم حوادث التاريخ الرومانى التى حسمت فى مصير روما

---

(١) Y. Ferrero فى Greatness and Decline of Rome (١٩٠٨)

(٢) Mommsen فى Roman History

بل وفى مصير العالم كله اذ ذاك موقعة أكتيوم . والرواية المألوفة عنها هى أن أنطونيو خسر تلك المعركة لان كليوباطرة التى خافت عاقبتها وبثست منها مقدما ولت هاربة منها بأسطولها الكبير الى مصر فآثر أنطونيو اللحاق بها تاركا وراءه جنوده وأنصاره من شيوخ روما من أجل حبه . فاذا كانت تلك الرواية التقليدية صادقة فلا يسعنا الا أن نتحاز فورا الى قول پاسكال : « لو كان أنف كليوباطرة أقصر مما كان عليه لتغير وجه الأرض كله » . ولكن فريرو قرأ التاريخ على وجه آخر فقال أن قصة الحب بين أنطونيو وكيلوباطرة مجرد خرافة وأن أنطونيو لم يتزوج منها بدافع الحب العنيف وانما بدوافع سياسية محضة اذ كان يتابع خطة سياسية كبرى فقد كان يطمع فى مصر وليس فى شخص ملكتها الجميل ، وقصد بالزواج الملكى أن يبسط حماية روما على وادى النيل لكى يتمكن من التصرف فى كنوز البطالمة ليعد حملته على فارس . وبمثل هذا الزواج الملكى كان يستطيع طبعا أن يوفر أيضا لنفسه كل مزايا الحيازة الحقيقية لوادى النيل دون المجازفة بحرب تضمه الى روما . تلك هى خطته السياسية التى حدثت قصة الزواج الرومانتيكى بمقتضاها ، تلك القصة التى تضمنت على الأقل فى بدايتها معاهدة سياسية أيضا . ولقد أقبلت كيلوباطرة على الزواج لتثبت أركان قوتها المزعزعة فى حين أن أنطونيو أراد غير ذلك . ان تاريخ أنطونيو وكليوباطرة يمثل حلقة بالغة فى مأساتها من حلقات صراع مزق الامبراطورية الرومانية طيلة أربعة قرون لاحقة حتى قضى عليها هو الصراع بين الشرق والغرب . فى ضوء هذه الاعتبارات يصبح — كما يقول فريرو — سلوك أنطونيو واضحا جدا أذ زواجه فى أنطاكية الذى وضع بمقتضاه مصر تحت حماية روما هو الفصل الحاسم لسياسة كانت تهدف الى زحزحة حكمه الى الشرق .

اذا قبلنا هذا الفهم لشخصيتى أنطونيو وكليوباطرة فان الأحداث الأخرى وحتى موقعة أكتيوم تبدو فى ضوء جديد ومختلف . ففرار أنطونيو من المعركة كما يقول فريرو لم يكن سببه الخوف ولا عاطفة الحب المشتعل الأعمى بل كان فعلا سياسيا نضج التروى فيه قبل حدوثه . ذلك لأن امرأة طموحة عنيدة واثقة من نفسها مثل كليوباطرة ناضلت فى اصرار

لتقنع أنطونيو بالعودة الى مصر بجنبة اياه الموقعة والتنازل بارادته عن ايطاليا وحدها لأكتافيوس وذلك بأن تثار موقعة بحرية وهمية لتغطية الانسحاب الى مصر .

أنا لا شأن لى فى وجه الحقيقة فى كل هذا وانما الذى ابتغيت بيانه هو المنهج العام فى التفسير التاريخى للوقائع السياسية لأننا اذا عرفنا كل الوقائع فى تسلسلها الزمنى ووفقا لقانون العلية الفاعلة فلن يكون لدينا منها غير خطة عامة وهيكل للتاريخ أو مجرد قشرة وسطح . ولكن لن تكون لدينا حياته الحقيقية التى تنبعث عنها القشور والحوادث الظاهرية ، تلك الحياة النابضة التى يلجأ اليها المؤرخ فى آخر الأمر ليقرأ الرسالة السياسية للشخصية التى يدرسها مستمدا منها الهدف الأخير لأحداث التاريخ والتفسير الغائى لمجراها الزمنى . ان فهم الانسان الواقعى الذى يكمن وراء الأحداث هو الهدف الأخير للمعرفة التاريخية ، فهى تعتبر أفعال الانسان وأعماله تعبيرات لحياته فتحاول اعادة بناء تلك الأفعال والأعمال فى صورتها الأصيلة وذلك بأن تقبض على ناصية الحياة التى ولدتها وأنشأتها . وهذا هو ما عبرنا عنه بتفسير حوادث التاريخ الظاهرة بالعلية الغائية الكامنة فى الأشخاص والهدف لها فى بواعثهم ودوافعهم .

ان هذا كله هو ما فهمه تماما وعبر عنه المؤرخ والفيلسوف تين[1] فى أوائل أمتع كتبه وعنوانه تاريخ الأدب الانجليزى . فهو بعد أن بين كيف أن المؤرخ انما ينقب فيما وراء الحوادث الظاهرة عن الانسان الباطنى كما ينقب البيولوجى فيما وراء الأصداف المتحجرة عن الحيوان الذى كان يعيش فيها ، يتساءل : « عندما ترمق بعينى رأسك الانسان المنظور عم تبحث » ؟ عن الانسان غير المنظور . كلماته التى تطرق سمعك ؛ الاشارات وحركات رأسه ، الملابس التى يرتديها ، الأعمال والأفعال من كل نوع ، كلها مجرد تعبيرات . وشىء ما يتكشف فيما تحتها ، وذلك الشىء هو الروح . انسان باطن يختفى تحت الانسان الظاهر ، وهذا الأخير هو الذى يشف عن الأول ... كل ما فى الظاهر أن هو الا

---

(١) Hist. de Litt. Angl. d H. Taine

طرقات تتجمع فى مركز وأنت تجتاز تلك الطرقات لكى تصل الى ذلك المركز . المركز هو الانسان الأصيل .. هذا العالم التحتانى هو موضوع جديد يخص المؤرخ » .

أن ما أود أن أبرزه فى تلك الفقرة فيما يختص بمعنى الغائية فى التاريخ هو كلمات مثل الروح والانسان الباطن والانسان الأصيل والعالم التحتانى والمركز الذى تتجمع فيه الطرقات الظاهرة (الأحداث الزمنية) وكلها مترادفة هنا فى الأشارة الى المعنى الذى نقصده بالغائية .